

فلسطين إلى أين؟

إعلان بابه*

أصول النيو - صهيونية ومستقبلها**

مقدمة

تتنافس اليوم ثلاثة تيارات أيديولوجية داخل المجتمع اليهودي في إسرائيل، فالتيار الصهيوني التقليدي الذي كانت تمثله الحركة العمالية على مرّ الأعوام، يخوض تحدياً مع التفسير اليميني للصهيونية، والذي سندعوه هنا نيو - صهيونية، وفي الوقت ذاته، يوجد على الهامش تيار يساري صغير ما بعد - صهيوني، أو مناهض للصهيونية، أضعف منهما^١. لقد أصبحت إسرائيل منذ مطلع هذا القرن دولة نيو - صهيونية، الأمر الذي ترتّب عليه آثار بعيدة المدى في مواطنيها، وفي الفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال، وفي المنطقة عامة. وسأحاول في هذه المقالة تحليل أصول الحركة، وأسباب صعودها، وتأثيرها المحتمل محلياً وإقليمياً في المستقبل المنظور.

قبل البدء، من المهم تذكير القراء بما يعنيه "يسار ويمين" في إسرائيل. فالتقسيم السياسي في إسرائيل إلى يمين ويسار فريد من نوعه في عالم السياسة. فهذا المصطلح الذي استلهم في أغلبية بلاد العالم، من مكان الجلوس داخل الجمعية الوطنية للكتلة المناهضة للملكية في فرنسا في القرن الثامن عشر، والذي يشير إلى اليسار والرؤية الاشتراكية للمجتمع، بينما يشير اليمين إلى الرؤية الرأسمالية، له في إسرائيل دلالة مختلفة. إن تحديد كون شخص أو جماعة على اليمين أو على اليسار في إسرائيل يتعلق بالموقف تجاه الصراع العربي - الإسرائيلي عامة، والقضية الفلسطينية خاصة. فالجناح اليميني يعارض إجراء تسوية إقليمية مع العالم العربي بشأن الأراضي التي احتلتها إسرائيل في حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧، ويرفض منح حقوق متساوية من أي نوع للمواطنين الفلسطينيين في الدولة، كما أن اليسار في إسرائيل أكثر علمانية، في

* مؤرخ وأكاديمي إسرائيلي.

** مقالة بالإنجليزية خاصة بـ "مجلة الدراسات الفلسطينية"، بعنوان:

The Origins of Neo-Zionism and its Future

ترجمة: ريم ديبات.

حين أن اليمين أكثر محافظة بالمعنى الديني.

من هذا المنظور، يُعتبر حزب العمل الذي يمثل تيار الصهيونية الكلاسيكية السائد منذ تأسيس الحركة في سنة ١٨٨٢، على يسار الوسط بالنسبة إلى معظم الإسرائيليين، وقد ظل مهيمناً على السياسة الإسرائيلية حتى نهاية سبعينيات القرن الماضي. هذا التيار الصهيوني بنى الدولة اليهودية خلال فترة الانتداب، وقام بالتطهير العرقي بحق الفلسطينيين في سنة ١٩٤٨، ورسّخ الحكم العسكري على المواطنين العرب في إسرائيل حتى سنة ١٩٦٦، ونقله إلى الضفة الغربية وقطاع غزة بعد حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧، لكنه في سنة ١٩٧٧ فقد سلطته، ثم عاد إلى الحكم فترة قصيرة ما بين سنتي ١٩٩٢ و١٩٩٦. الحدث المهم في تلك الفترة كان اتفاق أوسلو الذي فشل وأدى إلى عودة الأحزاب الإسرائيلية النيو - صهيونية اليمينية إلى السلطة، وأصبح "حزب المعسكر الصهيوني" (وهو الاسم الجديد الذي أطلق على حزب العمل منذ بضعة أعوام) ضعيفاً وغير ذي أهمية كحزب معارض في القرن الحادي والعشرين.

وواجهت الصهيونية الكلاسيكية تحدياً آخر من اليسار خلال التسعينيات، ففي ذلك العقد، ظهرت حركة نقدية فكرية وثقافية، عُرفت باسم ما بعد - الصهيونية، وذلك لفترة قصيرة قبل أن تتلاشى في سنة ٢٠٠٠، وتُدفع إلى هامش الحياة السياسية حيث لا تزال موجودة ضمن هذا الهامش حتى اليوم. لقد قدمت تلك الحركة سردية تاريخية وأيديولوجية عن فلسطين قريبة جداً من السردية الفلسطينية، فأصحابها من باحثين وفنانين وصحافيين وناشطين وسياسيين، اعتبروا الصهيونية نظاماً استعمارياً، والنكبة تطهيراً عرقياً، واحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة استعماراً، وإسرائيل دولة غير ديمقراطية.^٢ أمّا بالنسبة إلى المستقبل، فإن رؤيتهم هي بناء دولة ديمقراطية للجميع، بعضهم لا يزال مؤمناً بأن تحقيقها ممكن فقط عبر حل حقيقي يقوم على وجود دولتين، والبعض الآخر فقد الأمل في هذا الحل.^٣

وهكذا، بات اليوم كلا التيارين، الكلاسيكي واليساري ما بعد - الصهيوني، هامشياً في إسرائيل، بينما أصبح التيار النيو - صهيوني اليميني هو الذي يقرر سياسة البلد، بعد أن برز بقوة في الانتخابات العامة في سنة ١٩٧٧، وهيمن على السياسة الإسرائيلية منذ ذلك الحين. وفي سنة ٢٠١٦، أصبحت النيو - صهيونية هي التفسير الأيديولوجي الأقوى للصهيونية في إسرائيل.

تهدف هذه المقالة إلى توصيف أصول النيو - صهيونية، وتحليل تأثيرها الممكن في إسرائيل وفلسطين والمنطقة، في المستقبل القريب والمنظور.

الأصول

بدأ معظم الباحثين، وبينهم كاتب هذه المقالة، باستخدام مصطلح نيو - صهيونية في الثمانينيات، وذلك لتوصيف تلك الانعطافة الأيديولوجية التي حدثت في الحركة الصهيونية داخل إسرائيل، والتي جلبت إلى السلطة تحالفاً سياسياً قوياً ما بين الأحزاب الدينية القومية، واليهود الأورثوذكس المتشدد، واليهود الشرقيين (المزراحيين)، وحزب الليكود العلماني اليميني. وهذا التحالف يشكل حالياً القوة المسيطرة على السياسة الإسرائيلية.^٤

ظهر اليمين الصهيوني العلماني في عشرينيات القرن الماضي، وُلد كفصيل منحدر من الصهيونية التي كانت سائدة في أوائل العشرينيات، وكان بقيادة زائف جابوتنسكي الذي أسس الحركة التصحيحية اليهودية داخل المشروع الاستيطاني في فلسطين. كان جابوتنسكي جازماً بشأن أن التيار الصهيوني السائد شديد الاعتدال فيما يتعلق بمطالبه الإقليمية (فقد أراد أن يكون الأردن وفلسطين أرض الدولة اليهودية المستقبلية)، ومتساهل جداً مع البريطانيين والفلسطينيين. كما أنه أسس حركة شبابية، بيتار، بهدف نشر تلك الآراء في أوساط الشباب. وخلفه بعد وفاته مناحم بيغن الذي أضاف إلى الحركة السياسية، منظمة شبه عسكرية، هي الإرغون التي قاتلت ضد البريطانيين في فلسطين، واعتدت على السكان المحليين الفلسطينيين.

بعد قيام إسرائيل، أصبحت الحركة اليمينية حزباً سُمي حيروت (الحرية)، وتلاقت، في الستينيات، مع الأحزاب الليبرالية الإسرائيلية، وأسست جميعاً، ولفترة قصيرة، حزباً أكبر سُمي غاحل. جند بيغن العديد من السياسيين المعروفين، مستغلاً بصورة خاصة حالة الإحباط لدى اليهود الشرقيين بعد أعوام من الإهمال والتهميش، فأتى بالجميع إلى السلطة عبر حزبه الأصلي بعد تحوُّله النهائي إلى حزب عملاق: حزب الليكود (التكتل) الذي أوصله بنجاح إلى السلطة في سنة ١٩٧٧، إلا إن الهجوم المباغت في حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣ ساهم في الخسارة التي أصابت حزب العمل في انتخابات ١٩٧٧. غير أن هذا الحزب اليميني لم يحقق نجاحاً كبيراً في الحكومة، فقد تورط في حرب لبنان الأولى في سنة ١٩٨٢، وتعرّض لأزمات مالية واقتصادية وأصبح، منذ سنة ١٩٨٤، بحاجة إلى الحكم بالشراكة مع حزب العمل، حتى إنه خسر كثيراً من ناخبيه في القرن الحالي، وذلك عندما غادره أريئيل شارون، أحد أهم شخصياته القيادية، ليؤسس حزباً وسطاً، سمّاه كاديما. ومع هذا، عاد الليكود إلى السلطة في الأعوام العشرة الأخيرة، فقد اختفت أحزاب الوسط، ودخل حزب العمل في غياهب النسيان السياسي.

ليس سهلاً بالنسبة إلى المؤرخ تقويم الأسباب الكامنة خلف عودة الليكود إلى السلطة، لأن التحليل السليم يتطلب حيزاً زمنياً أكبر. لكن إذا قبل المرء بأن الصهيونية هي حركة استيطان استعمارية، والصراع في فلسطين هو صراع ما بين المستوطنين والسكان الأصليين، وليس صراعاً بين حركتين قوميتين متساويتين في الحقوق والارتباط بالأرض، عندها يستطيع أن يرى في الليكود نزوجاً منطقياً للمشروع الاستيطاني الاستعماري في فلسطين. ومثلما أوضح الباحث الكبير في شؤون الاستعمار الاستيطاني، الراحل باتريك وولف، فإن الدافع الرئيسي وراء الاستعمار الاستيطاني هو "منطق التخلص من الساكن الأصلي". فالـمستوطنون الأوروبيون الذين وصلوا إلى الأميركتين أو أستراليا، وكذلك أولئك الذين وصلوا إلى فلسطين وجنوب أفريقيا، رأوا جميعاً في السكان الأصليين عائقاً أمام تحقيق حلمهم ببناء وطن في البلد الجديد، وطبعاً العوائق يجب التخلص منها، أكانت طبيعية، أم على شكل مجتمعات إنسانية. ففي الأميركتين، اتخذ التخلص من العوائق شكل الإبادة الجماعية، بينما أنجب في جنوب أفريقيا الفصل العنصري، أمّا في فلسطين فكانت أدواته عملية التطهير العرقي المستمرة. وأياً يكن موقعك، على يمين الطيف الصهيوني أو على يساره، فإنك لا شك تؤمن بأن الرؤية الصائبة هي أن تحصل على أكبر قدر ممكن من فلسطين، مع أقل قدر ممكن من

الفلسطينيين، والصهيونيون يتجادلون بشأن السبل الكفيلة بتحقيق هذه الرؤية، لكن ليس بشأن الرؤية بحد ذاتها. وعندما لم تنجح تكتيكات حزب العمل البراغمية في التخلص من الفلسطينيين عبر تطويقهم في بانتوستائين بمساعدة اتفاق أوسلو، كان من الطبيعي تماماً بالنسبة إلى الناحب الإسرائيلي أن ينتقل نحو أولئك المنادين بأن على إسرائيل استخدام وسائل صارمة ضد السكان الأصليين أينما هم. وبينما أكد حزب العمل أن على إسرائيل الحصول على الموافقة الدولية، والترخيص الأميركي، من أجل أي عمل تقوم به، يبدو أن الليكود، والتحالف النيو - صهيوني لا يعيران أي أهمية للرأي الدولي على الإطلاق، وهما راضيين عن الدعم المسيحي - الصهيوني المحافظ الجديد الذي يحظيان به في تلة الكابيتول (Capitol Hill) في واشنطن. إن النيو - صهيونية هي النهاية المنطقية للمشروع الاستعماري الاستيطاني في فلسطين.

يشكل حزب الليكود ومؤسسات البحث والتعليم المرتبطة به، فضلاً عن صحيفته، الركيزة الأولى التي تقوم عليها النيو - صهيونية اليوم، بينما تشكل الأحزاب الدينية في إسرائيل الركيزة الثانية. وظهرت الصهيونية الدينية أول مرة في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت الصهيونية نفسها، في مراحلها الأولى، حركة علمانية، ولهذا اعترضت عليها الأورثوذكسية الدينية وأغلبية مؤسساتها في العالم، والسبب هو أن الصهيونية لم تكن تسعى لإيجاد ملاذ آمن لليهود فحسب، بل كانت تريد علمنتهم باسم الحداثة أيضاً. وبالنسبة إلى تلك السلطات الدينية، فإن "عودة" الشعب اليهودي إلى أرض إسرائيل (فلسطين) هي أمر بيد الله، ولا تحدث إلا في نهاية الزمان. غير أن عدداً قليلاً من الحاخامات في ألمانيا وروسيا أيدوا فكرة أن "عودة" اليهود إلى فلسطين لا تتعارض مع مشيئة الله، وإنما هي تنفيذ لمخططة الإلهي لأجل الشعب اليهودي، كما اعتبروا أن حاجة اليهود إلى زراعة أرض إسرائيل (فلسطين) وراثتها هي واجب ديني، بينما اعتبر العلمانيون الصهيونيون ذلك ضرورة اشتراكية وقومية، مضيفين إليها الضرورة الدينية.^٦ وفي كلتا الحالتين، توافقت زراعة الأراضي مع حملة مقصودة لأخذ مكان الفلاح الفلسطيني، لا العمل معه جنباً إلى جنب.

خلال فترة الانتداب (١٩١٨ - ١٩٤٨)، ظهرت صيغتان دينيتان لليهودية في المجتمع الاستيطاني الصهيوني: الصيغة الدينية القومية، المعروفة باسم هابوعيل همزراحي (همزراحي هنا لا تعني الشرقي، بل هي اختصار بالعبرية لاسم "المركز الروحاني"، وهي حركة روحية للعامل اليهودي المتدين)، وكانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأحزاب السياسية الاشتراكية الرئيسية للحركة الصهيونية، وشاركت في جميع الحكومات التي تشكلت في إسرائيل بقيادة الحركة العمالية حتى سنة ١٩٧٧.^٧ وبعد قيام دولة إسرائيل، أصبح هذا التيار الديني بقيادة حزب المفدال، الحزب القومي الديني الذي حُل في القرن الواحد والعشرين، وفُكَّ إلى فرعين أو ثلاثة (الأكثر أهمية بينها هو الحزب اليميني المتطرف القوي حالياً، البيت اليهودي). وخلال تلك العملية انتقل هذا التيار بشكل دراماتيكي من الوسط إلى أقصى اليمين السياسي في إسرائيل.

الصيغة الثانية من اليهودية ضمن السياق الصهيوني هي اليهود الأورثوذكس المتشددون (أي اليهود الذين يؤمنون بأنه ينبغي لهم أن يتصرفوا ويعيشوا ويلبسوا مثلاً فعل أجدادهم في أوروبا في القرن التاسع عشر، على الرغم من مرور الزمن؛ إنه مجتمع منطوي

على نفسه ومنغلق ومسور، ويحاول أن يمنع أي تأثير للحدث أو الدولة فيه). لقد كان اليهود الأورثوذكس المتشددون منقسمين بشأن كيفية التعامل مع الصهيونية: مجموعة اعتبرت نفسها في ذلك الحين، ولا تزال حتى اليوم، معادية للصهيونية، وكانت، ولا تزال، مناصرة للفلسطينيين، ولا تصوت، ولا تشارك في اللعبة السياسية الإسرائيلية، ومجموعة ثانية عقدت صفقة مع القيادة الصهيونية منذ سنة ١٩٤٨، وتشارك منذ ذلك الحين بفاعلية في عالم السياسة. وفي أواخر السبعينيات، انتقلت الأحزاب الأورثوذكسية الأكثر تأييداً للصهيونية، مثلما فعل زملاؤها الدينيون القوميون، من وسط الخريطة السياسية الإسرائيلية إلى يمينها. وحدث انقسام آخر في تيار اليهود الأورثوذكس المتشددين في إسرائيل، ففي الثمانينيات، بدأ اليهود الشرقيون في صفوف الأورثوذكس المتشددين، يشعرون برغبة في إنشاء حزب سياسي خاص بهم، بعد أعوام من التمييز ضدهم، وأطلقوا على هذا الحزب اسم شاس (لفظة مختصرة لاسمه الكامل باللغة العبرية، وهو السفارديون المحافظون على التوراة). وعلى الرغم من التوتر الإثني مع أحزاب الأورثوذكس المتشددين الغربيين (الأشكناز)، فإن حزب شاس تشارك معها في الموقف العدائي نفسه تجاه الفلسطينيين، وتبنياً معاً خطاباً شديد القومية، ويمكن القول إنه عنصري، عند مناقشة قضية فلسطين. هذا الأمر مأسوي من عدة نواح، فاليهود الأورثوذكس المتشددون الشرقيون قادمون أساساً من تقاليد معتدلة احترمت الآخر، وقد تعايشوا بسلام مع جيرانهم العرب الأصليين. وسأتي لاحقاً على ذكر الأسباب التي أدت إلى هذا التحول.

أصبحت هاتان المجموعتان الدينيتان، القوميون المتدينون والأورثوذكس المتشددون، المسؤولتين الرئيسيتين عن تجنيد اليهود في الحركة الاستيطانية في الضفة الغربية وقطاع غزة بعد سنة ١٩٦٧. المجموعات الدينية القومية استعمرت الأراضي الجديدة كواجب مسيحياني، أما الأورثوذكس المتشددون، الشرقيون أو الغربيون، فاستعمروها لأسباب اجتماعية - اقتصادية أساساً، وكان دافعهم جميعاً هو تفسير لليهودية ينتزع الصفة الإنسانية عن الفلسطينيين، ويبرر طردهم، وفي بعض الحالات إبادةهم. وأثبتت المجموعة الدينية القومية أنها لوبي سياسي قوي من أجل توسيع المشروع الاستيطاني في الأراضي المحتلة، وأنها مؤيدة لاضطهاد الفلسطينيين بشكل أعنف. وبعد سنة ١٩٦٧، قامت مجموعة مسيحيانية معينة تنتمي إلى حركة شباب المفدال التي اسمها بني عكيفا، بتأسيس حركة غوش إيمونيم الشهيرة، أو بالأحرى سيئة السمعة، المكرسة لتوطين اليهود في الضفة الغربية وقطاع غزة المحتلين.

أسست غوش إيمونيم، بموافقة الحكومة ومن دون موافقتها، جيوباً يهودية واصلت نموها في الأراضي المحتلة، وحظيت بمعاملة تفضيلية من طرف الحكومة، فصارت الأراضي الفلسطينية، وقضت على الفضاء المحتمل لقيام دولة فلسطينية مستقلة، وضايقت جيرانها الفلسطينيين وتحرشت بهم، وذلك كله بحماية الجيش.^٨ وبينما كانت هذه الحركة تبني مستوطناتها، شرعت الحكومة في بناء المدن في القسم الغربي من الضفة الغربية لمصلحة اليهود الأورثوذكس المتشددين الذين تضخمت أعدادهم بمرور الوقت. وتقوم الحكومة الآن ببناء مدن مماثلة لليهود الأورثوذكس المتشددين قرب المدن الفلسطينية، داخل إسرائيل، كالناصرية وأم الفحم، بهدف قطع الاتصال الجغرافي بين المواطنين الفلسطينيين داخل

الدولة اليهودية.

وشكلت هاتان الحركتان الدينيتان، المستوطنون واليهود الأورثوذكس المتشددون، تحالفاً سياسياً مع حزب الليكود وحلفائه في أوائل الثمانينيات، واندمجوا معاً في كتل مثير للقلق يجمع الأفكار الاقتصادية النيو - ليبرالية بشأن الخصخصة في إسرائيل، وذلك لمصلحة نخبتها الاقتصادية والشركات المتعددة الجنسيات ذات الأيديولوجيا القومية التي تُنكر كل مطلب أو تطّلع فلسطيني إلى إنهاء احتلال ١٩٦٧، أو إحلال الديمقراطية داخل الدولة اليهودية، أو الاعتراف بحق العودة للاجئين. ومع مرور الوقت، تغيرت أسماء الأحزاب الممثلة للمجموعات الدينية / الأورثوذكسية ولحلفاء حزب الليكود، إلا إن التحالف نفسه أصبح أقوى عاماً بعد عام. هذا التكتل الأيديولوجي المكون من القوى الدينية القومية، والمجموعات الأورثوذكسية المتشددة الرئيسية - وخصوصاً اليهود الشرقيين والصهيونيين العلمانيين المحافظين الجدد - والذي من الأفضل تسميته التيار الأيديولوجي النيو - صهيوني، بات هو المسيطر على السياسة الإسرائيلية في الوقت الراهن.

التأثير الحالي في السياسة

في سنة ٢٠١٦، بات ممكناً وضع خريطة لمعاقل النيو - صهيونية وتقويم تأثيرها المستقبلي في إسرائيل، وفلسطين، والمنطقة بأسرها، إذ إن حكومة سنة ٢٠١٦، المعروفة باسم حكومة نتניהو الرابعة، تضم جميع القوى النيو - صهيونية في إسرائيل. فهي ائتلاف يضم الليكود، والبيت اليهودي، وشاس، وإسرائيل بيتنا، ويهدوت هتوراه (يهود التوراة)، وكولانو (كلنا)، وهذه التركيبة هي أفضل انعكاس لمدى التطرف يميناً الذي وصلت إليه إسرائيل كنظام سياسي وكمجتمع.

الحزب الرئيسي، الليكود، بزعامة نتניהو والوزراء المقربين منه، لم يعد الحزب نفسه الذي كان يقوده مناحم بيغن في السبعينيات، فالسياسيون الذين اعتادوا أن يكونوا على هامش اليمين المتطرف هم اليوم من يتزعم الحزب. وفي حقيقة الأمر، ربما يكون من الإنصاف أن نقول إن نتניהو في حكومة الليكود الحالية يقف إلى يسار جميع وزرائه، وهو الموصوف لأعوام بأنه اليميني في حزبه.

حزب البيت اليهودي الذي يرئسه نفتالي بينت، هو وريث الحزب الديني القومي، مفدال، لكنه كما لليكود، لم يعد الحزب القديم ذاته، فهو أصبح حزب المستوطنين اليهود في الضفة الغربية، وداعميهم داخل إسرائيل. يتولى زعيم الحزب نفتالي بينت وزارة التعليم، وقد حوّل فعلياً النظام التعليمي إلى نظام يؤسس لإعداد جيل آخر من القوميين والخريجين ضيّقي الأفق، الذين من المستبعد جداً أن يعتبروا الفلسطينيين إنساناً، أو أن يهتموا بالمجتمع الدولي، أو يبدوا أي احترام للقيم الديمقراطية.

زملاء بينت، من أمثال يوري أريئيل، وزير الإسكان السابق الذي تولى في سنة ٢٠١٦ وزارة الزراعة، يستغلون مناصبهم الوزارية من أجل توسيع المستوطنات في الضفة الغربية وتهويد الجليل والنقب (أي مصادرة الأراضي الفلسطينية وبناء مستوطنات يهودية). وبعض تلك التوسعات الجديدة يتضمن أحياء بُنيت بصورة خاصة لليهود الأورثوذكس المتشددين،

وبالتالي فإن أحزاب اليهود الأورثوذكس المتشددين تقدّم الدعم لمشاريع الاستيطان تلك في الضفة الغربية والجليل والنقب.

حزب إسرائيل بيتنا الذي يرئسه وزير الحرب الحالي، أفينغور ليبيرمان، قائم بشكل أساسي، لكن ليس فقط، على أصوات المهاجرين الروس. وهنا مكان ملائم للإشارة إلى أن تدفق مليون مهاجر من الاتحاد السوفياتي السابق في أواخر الثمانينيات، ساهم في ازدياد القوة السياسية للتحالف النيو-صهيوني. وعلى الرغم من أن عدداً لا يستهان به منهم كان مسيحياً، وكان كثيرون منهم يملكون توجهاً علمانياً، فإنه كان من السهل توجيههم من جانب نظام الاستيعاب في إسرائيل نحو الأراضي المحتلة، وتلقينهم الأفكار كجماعة قومية معادية للعرب. وقد تطلّب الأمر تدخلاً حكومياً من أجل دق إسفين ما بين المهاجرين والفلسطينيين داخل إسرائيل (ففي النهاية، يوجد عدد غير قليل من الفلسطينيين ممن قضوا فترة من الزمن في الاتحاد السوفياتي، بحكم أهمية الحزب الشيوعي في المجتمع الفلسطيني داخل إسرائيل)، وكانت الحكومة بذلت في الخمسينيات، جهوداً ماثلة من أجل التفريق ما بين اليهود والعرب، عندما وجد اليهود الذين قدّموا من البلاد العربية أنه من الطبيعي والسهل، بالنسبة إليهم، الاختلاط وبناء علاقات الصداقة مع جيرانهم الفلسطينيين. لكن هذه الدوافع الإنسانية لا تلائم مشروع الصهيونية الاستيطاني الاستعماري.

أفينغور ليبيرمان على سبيل المثال، الذي نجح، بصورة مذهلة، في استنفاد القدرة الانتخابية لهؤلاء المهاجرين الجدد، لا يلتفت إطلاقاً إلى تلك الدوافع الإنسانية. إنه مستوطن في الضفة الغربية، لكنه يريد أن يتم الانسحاب من بعض أجزائها، كجزء من رؤية أوسع لتقليل عدد الفلسطينيين الموجودين داخل إسرائيل. فخريطة المستقبل كما يراها تتكون من ضفة عربية متقلصة بجوار دولة إسرائيلية تضم مجتمعاً فلسطينياً صغيراً جداً في داخلها، وقد تجلّت رؤيته هذه في اقتراحه أن تقوم إسرائيل بضم وادي عارة إلى الضفة الغربية، وهو قطاع يصل البحر بالشرق، ويعدّ ثاني أكبر تجمع للمواطنين الفلسطينيين (وفي المقابل تضم إسرائيل الكتل الاستيطانية الكبيرة الموجودة في الضفة الغربية).^٩ كما أنه، مثل بينت، يدعو إلى احتلال قطاع غزة من أجل القضاء على "حماس"، ويطالب بعقوبة الإعدام للفلسطينيين المتورطين في "الإرهاب"، وقد وضع فعلاً سياسات صارمة للتعامل مع الفلسطينيين الموجودين داخل إسرائيل.

طرف حاسم آخر في ائتلاف سنة ٢٠١٦، هو الأحزاب الأورثوذكسية المتشددة. وكما مر سابقاً، فإن هذه الأحزاب اعتادت التحالف سياسياً مع حزب العمل حتى سنة ١٩٧٧، بل إن وجهة نظر اليهود الشرقيين الأورثوذكس بشأن قضية فلسطين، أو الموقف تجاه المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل، لا تختلف كثيراً عن المواقف اليهودية السائدة في إسرائيل. ومع أن اليهود الشرقيين الأورثوذكس المتشددين، بصورة خاصة، جاؤوا من تقاليد تحمل في طياتها قبول الآخر والاعتدال، وعندما أسسوا حزبهم الخاص، شاس، بعد أعوام من تمييز اليهود الغربيين ضدهم، كان ممكناً توقّع أن يكون شاس على يسار الوسط عندما يتعلق الأمر بقضية فلسطين والسلام، إلا أن قادة شاس اليوم، وحاخاماتهم، بمن فيهم القائد الروحي الذي توفي مؤخراً، الحاخام عوفاديا يوسف، تلفظوا بأشد العبارات عنصرية بحق المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل، وبرروا عزلهم، وطالبوا بالإبقاء عليهم في مكانة

أدنى باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية. وخلال الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على غزة، ذهب أولئك القادة والسياسيون أبعد من كثيرين غيرهم بمطالبتهم بالإبادة الجماعية وبتشديد الهجمات على القطاع.

وحاول علماء الاجتماع في إسرائيل وخارجها على مر الأعوام أن يفسروا لماذا أصبح اليهود الشرقيون، الأورثوذكس وغير الأورثوذكس، معادين للعرب ومعادين للفلسطينيين إلى هذا الحد. ويبدو أن الاستنتاج الرئيسي هو أنه من أجل القبول بهم داخل مجتمع اليهود الغربيين، فإنه كان على اليهود القادمين من العالم العربي أن يثبتوا أنهم ليسوا "عرباً"؛ ولهذا جردوا أنفسهم من الهوية العربية. وتضمنت عملية التجريد تلك تغيير أسمائهم العربية إلى أسماء يهودية، ومحاولة التخلص من اللكنة العربية، وإنكار جذورهم وثقافتهم. وبين وسائل التجرد من الهوية العربية، جاء الموقف الواضح المعادي للعرب.^{١٠} ولا يزال هذا التفسير معقولاً اليوم، ويمكن أن يضاف إليه أن الحكومات الإسرائيلية المتعددة، وخصوصاً حكومات الليكود منذ سنة ١٩٧٧، استغلت هذه المواقف المعادية للعرب وألهمت.

تأثر تطرف اليهود الغربيين الأورثوذكس المتشددين (باستثناء بعض الفصائل الصغيرة، مثل ناطوري كارتا، المناهضة بشكل مبدئي للصهيونية، والمناصرة للقضية الفلسطينية)، بالمستوطنين المتدينين القوميين في الأراضي المحتلة، إذ إن وجود عدد كبير جداً من اليهود الأورثوذكس المتشددين الذين استوطنوا في الضفة الغربية، لأسباب اقتصادية أساساً، عزز ظاهرة التطرف، أو ما يمكن تسميته ظاهرة الصهيئة (على الرغم من أنه يجب القول إن أغلبية قياداتهم الروحية لا تعبّر غالباً عن أي رأي بشأن قضية فلسطين).

الحزب الوحيد في الائتلاف الحالي، والذي لا ينتمي كلياً إلى اليمين المتطرف، هو حزب كولانو (كلنا) الذي يرئسه الوزير الليكودي السابق موشيه كحلون، فأجندته اجتماعية تهتم بالقضايا الداخلية، وهو بالكاد يشكل تحدياً للقيادات الإسرائيلية الحالية.

لقد وجدت تلك القيادة اليمينية المتطرفة طريقها اليوم إلى داخل قوات الأمن والجيش، وأظهرت دراسة إحصائية حديثة تزايداً حاداً في عدد المستوطنين بين مختلف كوادرات الضباط في الجيش والأجهزة الأمنية، بحيث إن نسبة المستوطنين في الجيش والأجهزة الأمنية باتت أكبر خمس مرات من نسبتهم إلى عدد السكان.^{١١}

ويبدو أن قيادات الجيش والأجهزة الأمنية والموساد كانت، فيما مضى، تكبح جماح التطرف لدى نتניהو (على سبيل المثال، رفضها شنّ هجوم على إيران)، لكن فيما يتعلق باستراتيجية إسرائيل وسياستها تجاه القضية الفلسطينية، فإن النخبة الأمنية والعسكرية المحترفة لم تقدّم أي فكرة جديدة لعدة أعوام، كما أنها لم تعترض على إجراءات ومخططات النخبة السياسية. وربما تختلف هذه النخبة العسكرية عن النخبة السياسية الحالية في الأسلوب، ولا ترى في توسيع الاستيطان الحل الوحيد للتعامل مع العنف الفلسطيني الذي ولده الاستعمار والقمع لزمان طويل، لكنها مع ذلك، لم تقدّم أي حل بديل حتى الآن، شأنها في ذلك شأن حزب العمل (يدعى اليوم "حزب المعسكر الصهيوني") الذي ليس لديه إلا القليل ليقدمه، والذي يعتقد معظم الخبراء الإسرائيليين أنه لا يملك فرصة للفوز في الانتخابات في المستقبل القريب.

يؤكد حزب العمل أن التزامه بتمثيلية سلام متواصلة على الرغم من عدم فائدتها،

سيساعده في تحقيق رؤيته إلى المستقبل: تتحكم إسرائيل بصورة غير مباشرة، في ضفة غربية تتمتع بحكم ذاتي، وتستمر في حصار غزة، مع المحافظة على الوضع القانوني الراهن للمواطنين الفلسطينيين فيها كمواطنين درجة ثانية. وهذه الرؤية لا تكاد تشكل بديلاً من الليكود، بل في الحقيقة، من الصعب جداً استكشاف الفوارق ما بين الحزبين. فنتنياهو هو ليس بعيداً في تفكيره عن رؤية "المعسكر الصهيوني"، ولهذا السبب، فإنه يحاول باستمرار أن يضمه إلى حكومته، ومن المرجح أنه سينجح في هذا مع مرور الوقت. لكن زملاءه الذين على يمينه، يريدون، في معظمهم، ضم مزيد من الضفة الغربية رسمياً (أو على الأقل من المنطقة "ج" التي تشكل نصف الضفة الغربية)، واتخاذ مزيد من الإجراءات القمعية ضد الفلسطينيين، وإعلان قيام إسرائيل الكبرى بصورة رسمية، كجمهورية يهودية ذات طابع ثيوقراطي أكثر من أي وقت مضى، وتكون دولة لا يلقى الفلسطينيون فيها أي ترحيب، لكن يمكن التسامح مع وجودهم تحت شروط تقييدية.

ما يقلق كثيراً، هو أن هذا الائتلاف السياسي في السلطة، الموجود بصورة أو بأخرى، منذ سنة ٢٠٠٠، قد يكون له تأثير سلبي ومدمر في مجتمعه الخاص، وفي الفلسطينيين والمنطقة برمتها. فالأيدولوجيا التي يستند إليها سبق أن أثرت في النظامين التعليمي والعسكري، وحولتهما إلى أدوات طيعة في يدها لتنفيذ الرؤية النيو - صهيونية، كما أثرت مؤخراً في النظام القضائي (من خلال تعيين قضاة نيو - صهيونيين في جميع المستويات)، مع أن هذا الجزء من النظام كان دائماً يُعتبر المعقل الأخير للدفاع عن الديمقراطية في إسرائيل. فزميلة نفتالي بينت في البيت اليهودي، أييليت شاكيد، استلمت وزارة العدل، على الرغم من أن سلوكها العنصري وموقفها المعادي للديمقراطية ظهرا بكل صراحة ووضوح، إذ كتبت في صفحتها في الفيسبوك عن أفكارها بشأن كيفية التعامل مع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة:

الشعب الفلسطيني أعلن الحرب علينا، ويجب أن نردّ بحرب: لا بعملية، ولا بعملية بطيئة، ولا بعملية متدنية الشدة، ولا بتصعيد منضبط، ولا بتدمير البنية التحتية للإرهاب، ولا بالقتل المستهدف. كفى للأساليب الملتوية. إنها حرب، وللكلمات معانيها. إنها حرب. هي ليست حرباً ضد الإرهاب، ولا حرباً ضد المتطرفين، ولا حتى حرباً ضد السلطة الفلسطينية. هذه أشكال لتفادي قول الحقيقة. إنها حرب بين شعبين. مَنْ هو العدو؟ الشعب الفلسطيني. لماذا؟ اسألوهم، فهم مَنْ ابتدأ... خلف كل إرهابي يقف عشرات الرجال والنساء الذين لولاهم لما كان في قدرته أن يكون إرهابياً. الفاعلون في الحرب هم أولئك الذين يحرّضون في المساجد، ويعدّون المناهج المدرسية ذات الصبغة الإجرامية، ويقدمون المأوى ووسائل النقل، وجميع أولئك الذين يكرّمونهم ويقدمون الدعم المعنوي لهم. إنهم كلهم مقاتلون أعداء، وستكون دماؤهم في رقبتهم أنفسهم. وهذا يتضمن أمهات الشهداء اللواتي يرسلن أبناءهن إلى الجحيم مع الزهور والقبلات. هؤلاء يجب أن يلحقن بأبنائهن، ولا شي أكثر عدالة من هذا. يجب أن يذهبن، كما يجب أن تذهب بيوتهن التي ربّين الأفاعي فيها، وإلا فإن مزيداً من الأفاعي الصغيرة ستترى هناك.^{١٢}

إذا كان التعليم والأمن والقضاء ستسير جميعاً وفق المنظور النيو - صهيوني، في المستقبل المنظور، فإن الفلسطينيين أينما هم، سيكونون أول ضحايا هذا الواقع المتغير، وأكثرهم وضوحاً، بينما الضحايا المحتملة الأخرى هي الأصوات اليهودية المعارضة داخل إسرائيل، إذ صودق مؤخراً على قانونين يدلان على أن النظام النيو - صهيوني القائم يعتبر الأصوات اليهودية المخالفة أهدافاً مستقبلياً لمزيد من الاضطهاد: الأول، يجرّم أي دعم لحركة مقاطعة إسرائيل في الخارج (BDS)، والثاني، يحذّر كثيراً عمل المنظمات التي تُعنى بحقوق الإنسان والحقوق المدنية. وقد ترافق ذلك بصورة غير رسمية، مع حملات حكومية ضد المنظمات غير الحكومية، قادها رئيس الحكومة بنيامين نتنياهو (الذي، على سبيل المثال، صنّف منظمة "كسر الصمت" عدواً لدوداً لإسرائيل. وهي مؤلفة من مجموعة من جنود الاحتياط الذين يصرون على إخبار الإسرائيليين عن فظائع الاحتلال).^{١٣} إن النيو - صهيونية لا تتسامح مع المواقف ما بعد - الصهيونية، أو المناهضة للصهيونية، وهي بذلك قد تختلف عن التيار الصهيوني التقليدي الأقدم الذي كان يثمنّ التصور العالمي لإسرائيل كدولة ديمقراطية باعتباره أحد الأصول الاستراتيجية. وسواء آمن هذا التيار بالديمقراطية أم لم يؤمن، فإنه رغب في أن يتعامل الإسرائيليون وغير الإسرائيليين مع إسرائيل كدولة ديمقراطية، بينما يبدو أن النخبة السياسية الفكرية النيو - صهيونية لا تكتثر كثيراً لمثل هذه الصورة (ولذلك فإنها تولي الدعم الذي تحصل عليه إسرائيل في الولايات المتحدة الأميركية من الصهيونيين المسيحيين أهمية أكبر، مقارنة بالدعم الذي يقدمه اليهود الديمقراطيون الليبراليون). وقد أدى هذا السلوك إلى تآكل خطر في الصورة الأخلاقية لإسرائيل، وهو تآكل عرّفه نتنياهو بأنه تجريد الدولة اليهودية من الشرعية، وألحقه بـ "معاداة السامية الجديدة"، لكن الحقيقة هي أنه في عصر شفافية وسائل الإعلام هذا، ومع إمكان التواصل الافتراضي، فإن إسرائيل بوجهها الحقيقي النيو - صهيوني لم تكسب إلاّ عدداً قليلاً جداً من الأصدقاء حول العالم.

غير أن الاستياء العالمي، وغضب المجتمع الدولي، اللذين عبّرت عنهما حركة مقاطعة إسرائيل، والضغوط الأخرى من الخارج على إسرائيل، لم يغيّر كثيراً في مسار التطور السياسي فيها. وإن كان قد تغير شيء، فهو أن النيو - صهيونية تزداد قوة يوماً بعد يوم، وهي اليوم جاهزة للسيطرة على المعازل التي لم تنزل لغيرها، كالجامعات والساحات الثقافية، على سبيل المثال.

في الختام، تشكل إسرائيل النيو - صهيونية تهديداً للمنطقة كلها، ويمكن للمرء أن يتوقع اتباع سياسة عدوانية أكثر تجاه حزب الله في لبنان، واستمرار التدخل العسكري في سورية (الذي يتم حالياً تحت رقابة المجتمع الدولي). إن النيو - صهيونية لا تحوّل إسرائيل إلى معتدٍ فحسب، بل تجعلها أيضاً شريكاً مثالياً للأنظمة غير الديمقراطية في العالم العربي، تلك الأنظمة التي تمتلك كإسرائيل سجلاً قاتماً لانتهاكات حقوق الإنسان والحقوق المدنية. وهكذا، فإن الصراع ضد إسرائيل النيو - صهيونية في القرن الحادي والعشرين يجب أن يكون مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالنضال من أجل حقوق الإنسان والحقوق المدنية في العالم العربي بأكمله. ■

المصادر

- ١ يوجد كثير من المعلومات عن التيارات الثلاثة في كتابي الأخير المترجم إلى اللغة العربية: إعلان بابه، "فكرة إسرائيل: تاريخ السلطة والمعرفة"، ترجمة محمد زيدان (بيروت: مكتبة كل شيء، ٢٠١٦). وفي هذا الصدد، انظر ص ٢٥٧ - ٣١٧.
- ٢ المصدر نفسه.
- ٣ المصدر نفسه.
- ٤ للنو - صهيونية اليوم صفحة خاصة في موقع ويكيبيديا. والباحث يوري رام هو أول من استخدم المصطلح بالشكل الصحيح. انظر:
- Uri Ram, *Israeli Nationalism: Social Conflicts and the Politics of Knowledge* (New York and London: Routledge, 2010), p. 162.
- ٥ Patrick Wolfe, "Settler Colonialism and the Logic of Elimination of the Native", *Journal of Genocide Research*, vol. 8, no. 4 (2006), pp. 387-409.
- ٦ Shlomo Avineri, *The Making of Modern Zionism: Intellectual Origins of the Jewish State* (New York: Basic Books, 1981), pp. 187-209.
- ٧ Ibid.
- ٨ انظر:
- Idith Zertal and Akiva Eldar, *The Lords of the Land: The War over Israel's Settlements in the Occupied Territories* (New York: Nation Books, 2009).
- ٩ "Liberman: Several Israeli Arab Towns must be Made Part of Palestine under Peace Deal", *Haaretz*, January 5, 2014, <http://www.haaretz.com/israel-news/1.567063>
- ١٠ انظر نقاشاً مفصلاً في كتاب بابه: "فكرة إسرائيل..."، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٥-٢٥١.
- ١١ "Amos Harel's Report", *Haaretz*, September 29, 2010.
- ١٢ Ishaan Tharoor, "Israel's New Justice Minister Considers All Palestinians to be 'the Enemy'", *The Washington Post*, May 7, 2015, <https://www.washingtonpost.com/news/worldviews/wp/2015/05/07/israels-new-justice-minister-considers-all-palestinians-to-be-the-enemy/>
- ١٣ "Netanyahu: Breaking the Silence's Attempt to Gather Intel on IDF Soldiers is Intolerable", *Haaretz*, March 20, 2016, <http://www.haaretz.com/israel-news/.premium-1.709820>